BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

منتدى الحوار

Dialogue Forum

(DF)

ثقافـــة الإصـــلاح وإصـــلاح الثقافـــة

جابر عصفور:

أعتقد أن هذه الندوة في منتهى الأهمية لأن موضوعها عن ثقافة الإصلاح وإصلاح الثقافة، وهو موضوع في غاية الأهمية، وأعتقد أن إحدى المشكلات الأساسية في المجتمع المصري هي التخلف الثقافي الذي يتزايد يومًا بعد يوم، ومن يشاهد شوارعنا وجرائدنا والكتابات التي تصدر يتأكد أننا فعلاً في حالة تدهور ثقافي، ولذلك سعدت جدًّا عندما عرفت أن الأستاذ جميل مطر سوف يتحدث عن هذا الموضوع لأنني من المهتمين بهذا الموضوع، ولذلك جئت خصيصًا لكي أستمع منه وأتعلم ونتحاور معه بعد أن ينتهي من محاضرته.

والأستاذ جميل مطر حصل على شـــهادة البكالوريوس فـــي العلـــوم السياسية من جامعـــة القاهرة. والتحق بالسلك الدبلوماســـي المصـــري وعمل بسفارات مصر في نيودلهي وبكين وروومـــا وسنتياجو وبيونس أيرس. واستأنف دراساته العليا فحصل على الماجستير في العلوم السياســـية مـــن جامعة ماكجيل بكندا، ثم انضم إلى مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية بمؤسسة الأهرام والـــذي أصبح فيما بعد مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية. ثم عمل بالجامعة العربية مديرًا للصـــندوق العربي للمعونة الفنية للدول الإفريقية ثم رئيسًا بالإنابة للإدارة العامة لشئون فلسطين، ثم استقال مـــن جامعة الدول العربية ليتفرغ لإنشاء وإدارة – مع زملاء له – المركـــز العـــربي لبحـــوث التنميـــة والمستقبل، وتولى مع آخرين مسئولية إصدار مجلة "وجهات نظر". وصدر له عدد من الكتب كـــان أولها بالاشتراك مع الدكتور علي الدين هلال بعنوان "النظام الإقليمي العـــربي"، وآخرهـــا بعنـــوان "حكايتي مع الدبلوماسية"، وقد حرر عددًا من الكتب أقدَمها كتاب عن "إصلاح جامعـــة الـــدول

العربية" وكتاب عن "إصلاح الأمم المتحدة"، وأحدثها "الأداء البرلماني للمرأة العربية"، وهو يكتـــب بانتظام في عدة صحف ودوريات عربية.

جميل مطر:

أشكر مكتبة الإسكندرية على دعوتي للحديث في منتدى الحوار. إن العنوان كما أشار إليه الدكتور جابر عصفور هو "ثقافة الإصلاح وإصلاح الثقافة"، وعندما كنت أفكر في كيفية عرضه في الندوة وجدت أن بالعنوان مشكلة أساسية تتمثل في ضرورة تعريف كلمة "الإصلاح" من ناحية وتعريف كلمة "الثقافة" من ناحية أخرى. كيف نتعامل مع كلمة "إصلاح"؟ وكيف نتعامل مع كلمة "الثقافة"؟ وفي هذا السياق، سوف أطرح المشكلة ولا أعد أننا سنخرج في نهايتها متفقين تمامًا على تعريف كلمتي "الثقافة" و"الإصلاح". الشيء المعني بالإصلاح معناه أنه مُعْوَجّ أو منحرف أو سيئ أو شرير أو مذنب، كما أن الحديث عن الإصلاح يعني أن هناك خطأ ما نحاول تصحيحه. وأنا لا أنكر أن هناك ثقافات فعلاً شريرة والتاريخ شاهد على كثير منها. ثقافة المافيا شريرة وثقافة الرق والرقيق شريرة. كما أن الثقافة لا تعني طوال الوقت ما هو عظيم وإيجابي، وهي ليست في حد ذاتها كلمة محايدة، الثقافات تتغير وتتحول وتنمو، والثقافة قد تبدأ صغيرة أو متخلفة ثم تتطور وتنمو، وقد تكون متطورة وتنحدر.

كلمة "إصلاح" تحمل مشكلة أخرى وهي أن الإصلاح يتم بالإرادة، الثقافات لا تتطور تلقائيًا، وإنما بسبب ظروف موضوعية تدفع إلى تغيير الثقافة. وبذلك تكون كلمة إصلاح تعني إرادة التغيير، وصناعة التغيير. كما تعني أنها قد تتم بالقسوة كالحرب وفرض الهزيمة، في كلتا الحالتين تُنشأ ثقافة جديدة، وأظن أننا نشهد في المنطقة العربية محاولة لصنع ثقافة جديدة، أو لهدم ثقافة ووضع ثقافة أخرى. هناك جهود لإحداث تغيير متعمد للثقافة بوسائل قسوة متعددة منها ما يسمى بالفوضى الخلاقة، ومنها الاحتلال والغزو، ومنها الحصار الاقتصادي والسياسي والعسكري. هناك أيضًا مصطلح "هندسة الثقافة" وهي كلمة تحمل معاني كثيرة، وهو تعبير أخلاقي أكثر من كونه تعبيرًا هندسيًّا أو سياسيًّا أو اجتماعيـــًّا، إن "هندسة الثقافة" تعني أن يكون لنا الحق في التدخل لتغيير إنسان وتشكيل شخصية جديدة، وهذه قضية أخلاقية مازالت تثير جدلاً كبيرًا.

النصف الثاني من مشكلة العنوان في كلمة "ثقافة"، ماذا تعني؟ ما هي الثقافة؟ وما هي الثقافة الكبرى والثقافة الصغرى؟ أحيانًا تُطرح كلمة "ثقافة" بمعنى حضارة، فمنذ هنتنجتون ونحن نسمع عن صراع الحضارات وصدام الثقافات بمعنى كونهما شيئًا واحدًا، والسؤال هو هل الحضارة هي الثقافة

والثقافة هي الحضارة؟ والثقافة هي أيضًا الدين، وعندما نقول ثقافات العالم نذكر المسيحية والإسلام والهندوسية والبوذية ... إلى آخره. والعلم والقراءة ثقافة، ومهرجان الموسيقى ثقافة، وأحيانًا نسمع من يقول إن هناك ثقافة موسيقى، وهناك ثقافة السينما والمسرح والغناء، كما نسمع عن ثقافة العولمة، ما هي ثقافة العولمة؟ ولماذا نستخدم كلمة ثقافة لوصف مسيرة العولمة بإيجابياتها وسلبياتها ؟ هل العولمة بالضرورة أمر إيجابي؟ وعندما نقول ثقافة العولمة هل معنى ذلك أن الأمر يسير للأحسن أم من الممكن أن تكون ثقافة العولمة سببًا في انفراط الثقافات والأمم وتدهور مصالح الشعوب. ثم نسمع عن ثقافة الشارع وثقافة القرية وثقافة المصنع، والغريب أن هناك أيضًا ثقافة الجهل وثقافة تخلف وثقافة استبداد، ويُقال الآن إن العالم يتحول في منظومتين عالميتين: ثقافة الديمقراطية أمام ثقافة الاستبداد، في شكل حلفين جديدين يقفان أمام بعضهما البعض ، وهما الحلف الغربي الديمقراطي بقيادة أمريكا الذي يدخل حربًا باردة جديدة مع روسيا التي تقود ما يسمى بحلف الاستبداد.

وتثير مشكلة الثقافة قضية أخرى، وهي هل الثقافة تتطور وتنمو وتتغير أفقيًّا أم رأسيًّا؟ وهو سؤال ليس سهلاً لأننا عندما نقول ثقافة رأسية فهذا يعني وضع الثقافة كمفهوم دارويني يجعلها تنمو لكي ترقى، ولكن الثقافة أيضًا تمتد أفقيًّا لأنها تتصل بعلاقة إنسان بإنسان، ومجتمع بمجتمع، وإقليم بإقليم، فهي أفقية ولكن أيضًا رأسية بمعنى الموروث الذي يصل إلينا رأسيًّا، ولكن ليس بالمعنى الداروينى الذي يشير إلى تقدمها المستمر إلى أعلى، وهذا موضوع يحتاج إلى نقاش طويل قد لا يتسع الوقت هنا له.

ويرتبط بهذا السؤال ما يرتبط بمعنى المثقف، من هو المثقف؟ وفي الحقيقة، لن أدخل بالتفصيل في هذا الموضوع لأنه يثير حساسيات دقيقة جدًّا، لكن في ذاكرتي عبارة جميلة قالها "وول سوينكا" وهو كاتب نيجيري مرموق، ويعرفه أهل القرى في نيجيريا حتى أن كل من رآه كان يناديه "كونجي" التي تعني "أستاذ"، يصف سوينكا شعوره بحب الناس له: "كنت أشعر بالسعادة والفخر لأنني ولدت نيجيريـــاً"، وهنا تتجلى الصلة بين الثقافة والأمة والوطن، بمعنى أنه عندما يكون إنسانًا مثقفًا ويشعر أن هناك ترحيبًا به فإن هذا ينعكس مباشرة على الأمة عندما يشعر بفخر لانتمائه إليها، وأمته تبادله هذا الشعور. إن هذا تعبير بدائي وبسيط للمثقف، لكنه يعكس واقع علاقة المثقف بالأمة، و لم يكن المثقف معروفًا قبل القرن العشرين، فقد كان هناك رجل المعرفة أو رجل العلم في العصور الوسطى ثم جاء عصر علماء الدين ثم الأكاديميين والخبراء، كل هؤلاء أزاحوا مكانة رجل المعرفة، ومثقف القرن العشرين كما عرفناه لم يكن موجودًا حتى عام ١٨٩٧ عندما ظهر هذا التعبير مع قضية درايفوس الشهيرة في فرنسا حيث أُطلق على مؤيديه لقب "المثقفين".

ومازال السؤال ساريًا: من هو المثقف؟ يقول البعض إنه يُطلق على عضو في جماعة مهنية، أو على كل من يروج لمصلحة عامة، وكل من يهتم بالكتابة والحوار والأفكار، وعلى أي شخص يتحدث في غير اختصاصه، وكل من يعمل فيما يسمى تنظيم العواطف .بمعنى أنني مثلاً عندما أشعر أن الطبقة العاملة في مصر مسكينة ولا تنعم بالعدالة وأتحمس للتعبير عنها أكون مثقفًا ، لأنني أعمل على تنظيم عواطف عامة موجودة في مكان ما، ينطبق هذا على نشطاء ما يسمى بتمكين المرأة، فقد رأى مجموعة من المثقفين أن المرأة ضعيفة ومغلوبة على أمرها فحملوا مسئولية الدفاع عنها. ونعود لسوينكا حيث له تعبير ظريف، إذ قال: "إن المثقف هو من يعرف كيف يصنع مسافة غير قابلة للتفاوض بينه وبين الدولة". وهذا التوصيف من أحلى ما سمعت في توصيف المثقف، فهو لا ينعزل تمامًا عن الدولة ولا يرفضها تمامًا وأيضًا لا يندمج تمامًا، .بمعنى آخر يحصل الفرد على صفة المثقف عندما يعرف كيف يصنع المسافة بينه وبين الدولة.

وننتهي بذلك من مشكلة المفاهيم وننتقل إلى موضوع التغيير الثقافي، وسوف أتبنى المنهج الذي يستخدم في كتابة أدب الرحلات وسرد حكاياتها، سأقوم مع حضراتكم برحلة تجوب الزمان والمكان أيضًا. أذكر في دمشق في نهاية الثمانينيات وفي محاضرة في مكتبة الأسد كان حديثي عن العولمة التي كانت في هذا الوقت كلمة لا أحد يعرف بالدقة معناها، فجاءني سؤال: "ما هي العولمة؟" كانت هناك في ذلك الوقت عشرات الاجتهادات حول معنى هذه الكلمة ، وخطر في ذهني شيء مازلت أعتقد فيه حتى الآن، وقلت للحاضرين جئت إلى مطار دمشق من مطار القاهرة، وتصادف قبلها أن مررت على عدد من المطارات، يُلاحظ على جميع المطارات أنها تتشابه في كل شيء، منذ اللحظة التي تطأ فيها قدم المسافر صالة المطار إلى أن يركب الطائرة إلى أن ينـــزل في المطار الآخر، كل شيء نمطي .بما فيه ملابس المضيفات ومكتب حجز التذاكر وحارس الأمن والمضيفات والأرضيات والتعليمات. هذا الوضع هو ما أسميه بثقافة العولمة أو جانب منها. هذه النمطية تنتهي لحظة الخروج من المطار، فهي ثقافة محدودة في مكان معين، وعندما يدخل المسافر إلى الطائرة يسمع الطيار والمضيفة يتحدثان .بمصطلحات تميزهم، وهذه المصطلحات تتكرر في جميع شركات الطيران، هذه نمطية، لكن توجد أيضًا أخلاقيات، فلن نقابل في أي مكان على وجه الأرض من يحتج على الطائرة لأنها أقلعت في ميعادها الذي تأخر هو عليه مهما كانت حجة تأخيره، ولذلك أصبح انضباط المواعيد وتسلسل التوقيتات من علامات ثقافة العولمة. خرجت من هذا المثل ومن غيره بعد ذلك بأن الثقافة، أي ثقافة، تتشكل من ثلاثة مكونات هي: قواعد ومبادئ وسلوكيات، لا القواعد وحدها تكفي ولا القواعد والمبادئ فقط إذا لم تقترنا بالسلوكيات، وذلك لأن القواعد تعني إجراءات وقانونًا، والمبادئ تعني أخلاقيات، والسلوكيات تعني كيفية التعامل مع الأمور.

وليس معنى أن تكون ثقافة العولمة أكبر منا أن تحتكرنا وتفرض علينا كل شيء، لابد أن نكون واعين أنه مهما حاولنا تغيير الثقافة يظل المحلي على نفس درجة قوة الوارد من الخارج أو الكوني، فإذا تمت إضافة مكان لإقامة الصلاة في المطار مثلاً، فإن هذا معناه أن المحلي سواء كان دينيـــاً أم اجتماعيًّا أو غير ذلك كسر النمطية وفرض نفسه. وتوجد الكثير من الأمثلة التي تبرهن على كيفية فرض الثقافات المحلية أو الفرعية على ثقافة العولمة، وذات مرة، كنت راكبًا طائرة الخطوط البريطانية ولاحظت أنهم يضعون فيها علامة القِبلة، معنى هذا أن الدين الإسلامي استطاع أن يفرض نفسه كثقافة على ثقافة العولمة. كذلك، نسمع أن الطيارين المصريين والطيارين العرب عمومًا يرتلون آيات من القرآن الكريم داخل الطائرة، وهذا خارج ثقافة العولمة، لكنه أيضًا فرض نفسه. وهنا نقول إن الثقافة المحلية لا تستلم بسهولة، وهي على استعداد لأن تحارب بضراوة، وقد يصل الأمر إلى استخدام القسوة والعنف في مواجهة الثقافة الواردة من الخارج أو المفروضة عليها أو التي تريد تغييرها. والسؤال هو هل هذه المقاومة "حلاوة روح" تسبق الاستسلام النهائي، وهل لذلك تلجأ الثقافة المحلية أو الثقافة الأضعف أو الثقافة الصغيرة إلى العنف حتى تثبت وجودها، أم أن التصرف بالعكس أي عن طريق المحاولات المتعاقبة لإثبات وجودها مع الثقافة الأقوى؟ ونحن نرى أن ما يحدث في الشرق الأوسط وبشكل يصل إلى أقصى درجات العنـــف ، ليس خارجًا عن هذه المواجهة المستمرة.

بعد مثال المطار، يوجد مثال آخر يوضح جانبًا آخر من جوانب العولمة. تعالوا معي إلى منطقة الكاريبـــي، وهي مجموعة من الجزر يعيش فيها إنسان أطلقت عليه إنسان الكاريبـــي ووضعت تعريفًا مناسبًا له فقلت إن الكاريبـــي كائن يعيش على السياحة ولا شيء آخر، وتتكون هذه المنطقة من حوالي ٩٠٠ جزيرة تسكنها أعداد قليلة من البشر، أكبرها جزيرة كوبا، لكن كل هذه المنطقة كانت ولاتزال وستظل تعيش على السياحة، ولا شيء يعني هؤلاء الناس سوى السياحة. السياحة كما تعلمون هي رمز من رموز العولمة. السياحة بالنسبة للإنسان العادي في هذه الجزر هي مصدر رزقه وهي سبب وجوده ولا يوجد أي نشاط آخر يمكن أن يمارسه، كما أنها هي التي تضع له أسلوب ممارسة حياته وكيف يقضي سنوات عمره وكيف يجدد أحلامه وطموحاته، ومتى يتزوج ومتى يعيش وماذا يتعلم. وقد كتب أحد شعراء الكاريبـــي عن إنسان الكاريبـــي فقال: "هو إنسان ينتمي إلى عالم لا هوية له، ويفضله على وطن له هوية"، وأتصور أن هذا هو تعريف الإنسان المُعَوْلَم أو كائن العولمة أو الإنسان الخاضع تمامًا فكريًّا وأيديولوجيًّا وأخلاقيـــاً واقتصاديًّا للعولمة. ولذلك استخدمت نموذج الإنسان الكاريبي لأنه إنسان لا يفكر إلا في شيء محدد، وهذا الشيء المحدد لا

علاقة له شديدة أو وثيقة بوطنه ولا يهمه اسم بلده ولا هوية رئيسه ولا شكل الحكم ولا الألوان في علم بلاده.

وعندما نقرأ ما يُكتب هذه الأيام عن الكاريبـــي، لا نجد سوى السحر والشعوذة والتنجيم والخرافات والشياطين ودين غريب الشأن يتأرجح بين المسيحية والإسلام، ويعتقد السكان في السحر لأنه القوة الوحيدة في اعتقادهم التي يمكن أن تحميهم من أهوال العولمة وخطورتها، وتحميهم من مستقبله المجهول. ولذلك فإن لهم ثقافة لكنها ثقافة لا تاريخ لها ولا موروث ولا رؤية مستقبلية، وهذا نموذج مثالي لإنسان العولمة في تطرفها أو في تطرفه.

عندنا مثال آخر يبرهن على تغيير الثقافات، فنحن نشعر الآن عن حق أن هناك قلقًا عند بعض النوبيين على لغتهم، فهي لغة منحسرة، وأظن أنها ضاقت أو تقلصت إلى حد قد يؤدي إلى أن تنتهي. ولا نختلف على أن موضوع اللغة في مصر موضوع شائك، وأظن أن الناس تتردد في الكلام عنه لأنها تعتقد أنه يتعلق بضغوط خارجية. اللغة مشكلة عالمية وليست فقط مشكلة من مشكلات الإقليم، والعالم به خمسة آلاف لغة، وكل التقديرات تقول إنه بعد حوالي ٢٥٠ سنة فإن العالم كله سيتحدث لغة واحدة، إن سرعة انحسار بعض اللغات في العالم اليوم وتقدم البعض الآخر مثل اللغة الإنجليزية جعل بعض الإحصائيين وبعض المتخصصين في اللغات يتوقعون أن ينتهي الأمر بلغة واحدة. اللغة ليست فقط وسيلة يتحدث بها الناس مع بعضهم البعض، ولكنها تحمل أفكارهم وثقافتهم. وكل ١٤ يومًا، تفقد الثقافة العالمية لغة، وهذا معناه أن العالم يفقد ثقافة من ثقافاته كل ١٤ يومًا، والمثل الأكبر الذي يحدث فيه هذا الانحسار هو أمريكا اللاتينية ثم إفريقيا. والسؤال هو هل حقًّا سنفقد كل اللغات ولن تبقى سوى لغة واحدة؟ وهل يعني ذلك بالتالي أننا سنعيش في عالم له ثقافة واحدة؟ هذا موضوع يدفعنا إلى السعي لمعرفة المسئول عن إبادة اللغات ويدفعنا أيضًا إلى مناقشة وجوب التعامل معها على أنها كائنات منقرضة؟ وأتساءل لماذا لا نقوم بعمل محميات لهذه اللغات؟ وقد رأيت هذه التجربة وهي تتم في الأسبوع الماضي، عندما كنت أشارك في مؤتمر عن الأسرة في ظل الحروب الأهلية في "صيدنايا" التي تقع على بُعد ٣٠ كيلومترًا شمال دمشق، وهي قرية في إقليم يعاد فيه الاهتمام باللغة الآرامية التي أوشكت على الانقراض لولا تدخل اليونسكو، وبالفعل تحولت المنطقة إلى مزار سياحي وتوافدت عليها أعداد كبيرة من الناس تريد أن تسمع كيف كان ينطق المسيح عليه السلام والذي كان يتحدث الآرامية وهو يدعو الناس.

إن أهم سبب وراء زوال هذه اللغات كان مع بداية السعي لإقامة كيان سياسي واحد، وبخاصة عندما كان هناك تفكير في تأسيس الدولة – الأمة. إذ كان من الطبيعي أن تسعى الطبقة الحاكمة إلى أن تكون لغتها هي اللغة السائدة التي يتحدث بها كل الناس، هذا شيء طبيعي ولا يمكن إنكاره. وإن كان من واجبها على الأقل الدفاع عن اللغات الأخرى، لكن هذا بالطبع كلام نظري ومثالي وإذا طبقنا ذلك على النظام العالمي الحالي، سنجد أن أمريكا كإمبراطورية عالمية واقتصادية وسياسية وإستراتيجية، من الطبيعي أن تفكر في نشر لغتها، ولن تفكر في نشر أية لغة أخرى، إن أهم شيء لمصالحها طويلة الأمد أن تصبح اللغة الإنجليزية هي اللغة الأساسية في العالم.

ولهذه الفكرة تاريخ، ومنذ ألفي عام، كانت الإمبراطورية الرومانية تسعى دائمًا، بل كان أحد أهدافها إبادة اللغات الفرعية أو على الأقل إضعافها، لأنه من الطبيعي أنه إذا أرادت جماعة أن تحكم من قلب روما ليمتد حكمها حتى شعوب الشرق الأوسط وأواسط آسيا وأوروبا، فإنه من الضروري أن تفهم هذه الشعوب القوانين والمبادئ والمراسلات والتجارة التي تحكم بها الإمبراطورية الرومانية، فما كان من حكام روما إلا أن فرضوا اللغتين اللاتينية والرومانية على جميع ثقافات المنطقة مما أدى إلى انحسار ثم انقراض العديد من اللغات التي كانت موجودة في هذا الوقت. أيضًا، عندما كانت فرنسا في الجزائر، كادت تقضي على اللغة العربية، ولكنها لم تصل إلى نهاية مسعاها بسبب الدين الإسلامي، لكن في دول أخرى مثل دول غرب إفريقيا فقد نجحت في أن تكون اللغة الفرنسية هي اللغة الأساسية وتضعف بجانبها أية لغة أخرى.

يسهم أيضًا في انقراض اللغة تقدم تكنولوجيا الاتصال الذي فرض وجود لغة واحدة هي اللغة الإنجليزية. وفي مصر والدول العربية عمومًا تسبب تقدم الاتصال التكنولوجي في إضعاف الرباط العائلي، فمع وجود الفضائيات في البيت واختلاف أذواق العائلة الواحدة بين من يريد أن يشاهد البرنامج الفرنسي أو المسلسل الأمريكي أو الفقرة العربية، اختفى الوازع لاجتماع العائلة على اللغة، اليوم أشك أن أية عائلة تجتمع تكتفي بالحديث باللغة العربية وحدها لفترة طويلة. صحيح أن هذا التقدم في التكنولوجيا مطلوب أو مفروض علينا وعلى شعوب كثيرة أخرى، ولكن المؤكد أنه يتسبب في إضعاف اللغة الأصلية. ويلعب الترحال دورًا في هيمنة اللغة الإنجليزية باعتباره أحد أرصدة أو ثمار العولمة ولا يمكن تجاهل حقيقة أن ١٨٠٠ مليون شخص من مجموع ٦٤٠٠ مليون شخص في العالم اليوم يتحدثون اللغة الإنجليزية، وهذا يؤكد أنها أصبحت لغة الاقتصاد ولغة العلم ولغة التعاملات.

ومن زار الخليج يعرف أن اللغة العربية تنحسر تدريجيًّا لصالح اللغة الإنجليزية، في البيت والعمل ووسائل الإعلام، وأتصور أنه بعد سنوات قليلة بسبب الهجرة والعولمة سيزداد ضعف اللغة العربية. ويقابل هذا صحوة في الوعي بأهمية اللغة في الصين وفي اليابان وفي روسيا، وقد جاءت فترة اعتقدنا فيها أن روسيا ستنجرف تمامًا خلف الولايات المتحدة الأمريكية بعد وصول يلتسين إلى الحكم، لكن ما نراه اليوم من تغيير روسيا لمناهج التعليم في مدارسها تحت إدارة بوتين، وعودة اللغة الروسية لتلعب دورًا أساسيًّا، وصار كثير مما يُكتب في الخارج يُترجم إلى اللغة الروسية بغرض إنعاشها وتجديدها، وذلك كله بمساعدة الكنيسة الأرثوذكسية التي تعتبر أن استمرار اللغة الروسية حية ضمانًا لاستمرارها وبقائها.

نخلُص من فكرة إنسان الكاريبـــي أو إنسان العولمة إلى أن ثقافة العولمة هي ثقافة اللا هوية، أي ثقافة الفرد الواحد، وهذا في حد ذاته تناقض في الفكرة، فالفرد الواحد لا يمكن أن يشكل ثقافة، لأن الثقافة تحتاج في تشكيلها إلى أكثر من شخص واحد. من الممكن أن يعبر الفرد عن ثقافة نشأ متأثرًا بها، لكنه لا يمكن أن يكوِّن ثقافة خاصة به تُعرَف باسمه، ولا يمكن لشخص يعيش في الصحراء وحده أو في جزيرة منعزلة بمفرده أن تكون له ثقافة، و لم تكن لروبنسون كروزو الذي كان يعيش في جزيرة نائية ثقافة.

وتعبر ثقافة العولمة أيضًا عن حالة منـــزوعة التراث، فالعولمة لا تهتم بالتراث، وفي ظل العولمة ينحسر التراث شيئًا فشيئًا. وقد يكون في رأي بعض المفكرين أن إنسان الكاريبـــي هو العجينة المناسِبة لإحداث التغيير الثقافي، بمعنى الاستيلاء على شخص ثقافته خام بسيطة غير مركبة بحيث يسهل في وقت من الأوقات إعادة صياغته لإنتاج ثقافة جديدة.

تحدثنا عن التغيير الثقافي بالعولمة عن طريق تنميط الحياة وتوحيد القواعد والمؤسسات والممارسات وتشتيت الهوية والانتماء ودعم لغة معينة وهدم أو إضعاف بقية اللغات. ولكن ليس بسبب العولمة فقط تتغير الثقافات، فالثقافات تتغير لأسباب أخرى. نعود مرة أخرى إلى التاريخ، ففي زمن الفتوحات والغزوات العظمى حُملت ثقافات، فقد حمل الإغريق معهم ثقافة المدينة – الدولة ومعها العلم والسياسة والفلسفة، كما حمل الرومان ثقافة القانون والعنصرية وفكرة اللامساواة، فقد كان الرومان ينظرون إلى أن هناك رومان وبرابرة، كانت كل أوروبا بالنسبة إليهم برابرة بمعنى همج، وكانوا ينظرون إلى كل من هو ليس رومانيـــًّا على أنه أقل منهم فيما عدا الفرس حين اعتبروا الفرس مقاربين لهم في مستواهم الحضاري.

وهنا يحق السؤال: وماذا حمل المصريون؟ الفراعنة لم يعرفوا الفلسفة، كما أن الحضارة المصرية لم تحمل نظرية سياسية، وتاريخ الفراعنة بأكمله لم يترك لنا من يماثل أفلاطون وأرسطو. لم يظهر في مصر منظِّر سياسي، وهذه طبيعة سياسية ثانية لمصر، وأزعم من وجهة النظر الأكاديمية أنه حتى اليوم لم يظهر في مصر منظِّر أو عالم سياسة. عندنا خبرات أخرى، لكن لم يخرج من مصر فكر سياسي مثل الذي ظهر في أثينا فيما يختص بالأمور الداخلية للدولة، أو مثل الذي ظهر في روما فيما يختص بفكرة الإمبراطورية وبناء العالم. خرج من مصر شيء آخر، فقد ظهرت فيها فكرة الإله الأعظم، وفكرة العلاقة بين الإنسان والإله، وفكرة الرابطة الوثيقة بين الدين والدولة، هذا بالإضافة إلى علومهم التي تنوعت بين الطب والهندسة والكثير من الفروع التي حملوها إلى الخارج، لكن كانت أكثر معالم الحضارة بروزًا هي فكرة علاقة الإنسان بالإله وعلاقة الدولة بالدين. ومن الممكن أن نصل من خلال هذه الأمثلة إلى أبعاد كثيرة، منها أن الإمبراطورية الرومانية لم تعتنق الدين السماوي إلا عندما اقتنعت بأهمية هذا الربط الفرعوني بين الدين والسياسة، وبالفعل فقد وجدت أنها في مرحلة انهيارها النهائي لن ينقذها من هذا الانهيار سوى اعتناق المسيحية. وقد سمعت اليوم معلومة لا أعرف مدى صحتها تقول إن بني عبد مناف في الحقيقة أولاد منف، بمعنى أنهم خرجوا من مصر إلى الجزيرة العربية واستوطنوا فيها ناقلين معهم أفكارًا دينية، ثم حمل المسلمون الإسلام كثقافة في فتوحاتهم، وحملوه إلى شمال إفريقيا وإلى أقاليم خاضعة لبيزنطة؛ ومنذ ذلك الحين ارتبطت كلمة الثقافة بالحضارة الدينية. ومنذ ذلك الحين أصبحت العقيدة أساسًا لجميع الثقافات التي خرجت من مصر، وأظن أنها أساس لجميع الثقافات والمعتقدات الدينية الموجودة في العالم.

ما هي حوافز التغيير؟ ولماذا تتغير الثقافات وكيف تتغير؟ أول حافز للتغيير الثقافي هو التحديات، وعندما يتحدى تطور ما شعبًا أو ثقافة أو أمة يكون ذلك حافزًا للتغيير، والتحديات كثيرة ومهمة، وأبرزها الاستعمار، لقد أدى الاستعمار في معظم الأحوال إلى إحداث تغيير جذري أو سطحي. والسؤال هو لماذا لم يتأثر العرب بهزيمتهم أمام الأسطول البرتغالي في المحيط الهندي؟ جائز أن تكون الأوضاع الدولية في ذلك الوقت مختلفة، حيث كان هناك انهيار في القيم وعناصر القوة للأمة العربية كلها على أيدي مماليك ذلك الحين، لكن كان المتصوَّر أن تؤدي أول هزيمة في أول مواجهة مع أسطول غربي إلى نتائج أكبر بكثير مما حدث. أنا لست متشائمًا، لكن الخط المتعلق بهذه الأحداث ممتد حتى الآن، لأنه يجب أن يكون في مقابل الهزيمة رد فعل قوي. مثل هذه الحالة، حالة الغرب واليابان، فقد كانت هناك طبقة سياسية معينة تقود اليابان ثم شعرت بخطر الغرب أو بقوة الغرب، كان العنصر الحاسم والمفجر في الحالة اليابانية هو وجود طبقة بيروقراطية جمعت في داخلها خصائص البيروقراطية المدنية بخصائص البيروقراطية العسكرية، واستطاعت هذه الطبقة تغيير المجتمع الياباني

بالتدريج، وأبقت الغرب على الموانى ومنعته من الدخول، بينما كانت تتجسس على الغرب من خلال هذه الموانى، وأرسلت بعثات للتعليم في الخارج، ثم بنت على هذا الأساس ثقافتها المقاوِمة.

المثال المقابل الخاص بالصين مختلف تمامًا، فقد ووجِهَت الصين بغزو ثقافي كبير دخل عن طريق الأفيون وعن طريق إذلال الشعب والتكسير الثقافي وتفتيت الهوية الصينية، ولكن من حسن حظ الغرب ومن سوء حظ الصين أن الطبقة المسيطرة على شئونها كانت طبقة بيروقراطية متعفنة. وكان يهمها ألا يؤدي هذا التحدي أو هذا الخوف القادم من الغرب إلى إحداث ثورة في الصين. يعكس ذلك ما حدث منذ ثلاثمائة عام، أول ما شعر الصينيون بأن الأساطيل الغربية وصلت اليابان وأنها ستصل إلى شواطئها، شكلت أكبر أسطول بحري في تاريخها وصل حتى شواطئ إفريقيا، وعندما عاد إلى الصين، تصدت له الطبقة البيروقراطية الحاكمة لأنها شعرت أن هذه الحملة البحرية ستقوي جانب الإمبراطور عليها وسوف تضعف من سيطرتهم على الدولة، فقضوا على الأدميرال البحري، وقضوا على حركة الإصلاح، واستمر الوضع على ذلك حتى القرن العشرين. الحافز الثاني للتغيير هو التطورات السياسية والاجتماعية وخاصة معتقدات الطبقة الحاكمة، لأن التغيير لا يحدث إلا إذا توفرت لدى هذه الطبقة نية التغيير، وإحداثه بطريق أو بآخر سواء ببساطة وسهولة عن طريق السياسة، أو بالعنف والقسوة.

إن صعود وانحدار الطبقات يصنع فرقًا كبيرًا في تغيير الثقافة، والسباق بين المدينة والريف، وحفظ المسافة بين ما تمدَين من الريف وما يترَيَّف من المدينة، وأظن أننا نواجه هذه المشكلة بضراوة، حيث إن ثقافات الريف هي التي أصبحت تتحكم في المدينة، والنموذج يتجلى في مدينة القاهرة، التي تنتمي إلى العالم الحديث، ومع ذلك نجدها محاطة بالقرى من كل جانب، وهذه القرى التي أعدت للمتميزين تُقام بأسوار تعزلها عن المدينة.

وأود أيضًا أن أضرب مثالاً بثقافة المقهى، والمقهى في اعتقادي يعبر عن حاجة إنسان إلى الاختلاء بنفسه، ولا يعني ذلك أن يكون وحيدًا، ولكن أن يختار لنفسه صحبة بعيدًا عن الدولة وعن المجتمع المدني وعن العائلة، كان أبي يجلس على المقهى ويعود إلى المنـــزل سعيدًا، وفي اليابان كان رب الأسرة يذهب إلى الجيشا ليعود سعيدًا إلى بيته لأن جزءًا من سعادة العائلة هي عودة الرجل سعيدًا إلى بيته. كان المقهى يقوم بهذا الدور، حتى جاء العصر الذي قامت فيه الدولة بتسييس كل شيء، فانتهى المقهى بمعناه القديم وتحول إلى معانٍ أخرى مختلفة مثل الكافيتريا وغيرها. وأروع من كتب عن ذلك هو يرجن هابرماس حين كتب أطروحة أو مذكرة رائعة في مفهوم المقهى ومعناه

بالنسبة للتطورات الاجتماعية والسياسية، وقد نشأت ثقافة مغايرة في أوروبا وفي إنجلترا بالذات تهتم بفكرة المقهى الذي يذهب إليه الإنسان للجلوس فيه وحده أو مع آخرين، وكان هذا الاهتمام بداية تحول المجتمع الثقافي المغلق الذي اشتهرت به إنجلترا إلى مجتمع تسود فيه حرية التفكير والتعبير.

والحافز الثالث للتغيير هو الهجرة، وكلنا يعرف أن الإنسان حيوان مهاجر بامتياز، ولا شك في هذا، وتلعب الهجرة دورًا كبيرًا في التغيير، والمثل الممتاز في هذه الحالة هو الولايات المتحدة الأمريكية بل والأمريكتان بشكل عام، ومن الممكن أن نلاحظ الفرق بين الأمريكتين عندما ننظر إلى نوعية الهجرة وثقافة المهاجرين إلى كلٍّ منهما. إن مجرد اختلاف الثقافتين منذ خمسمائة عام، جعل أمريكا الشمالية الآن القوة الأعظم في التاريخ وجعل أمريكا اللاتينية قارة متخلفة، وذلك لأن من جاءوا من شمال أوروبا تختلف ثقافتهم عن من جاءوا من الثقافة الإسبانية. ويظهر ذلك فيما كتبه هنتنجتون، فبعد أن كتب عن صدام الحضارات على مستوى العالم عاد فاكتشف المشكلة الأخطر وهي أن هناك صدامًا متوقعًا بين الناطقين باللغة الإسبانية والأغلبية الناطقة بالإنجليزية في المجتمع الأمريكي، لأن بعد ٣٠ أو ٤٠ عامًا، سوف يشكل المهاجرون من أمريكا اللاتينية نصف عدد الناخبين الأمريكيين أو ٤٠% منهم على أقل تقدير، وبالتالي، فإن ثقافة الأبيض الأنجلوساكسوني البروتستانتي أو الثقافة الأمريكية القائمة حتى اليوم ستتراجع بسبب لغة أخرى وثقافة أخرى دخلت إلى المجتمع. هنا تتجلى أهمية الهجرة، كما تتجلى أهمية الهجرة فيما نراه يحدث في أوروبا الآن، وأعتقد أن الشعور بخطورة الهجرة هي التي أتت بساركوزي إلى الرئاسة الفرنسية.

وتوجد عقبات كثيرة تقف في طريق محاولتنا لتغيير الثقافة، أولها وأهمها على الإطلاق مسألة تراكم المراحل. نحن في مرحلة مطلوب فيها منَّا القفز لصعود المراحل مرة واحدة، في حين أن الغرب صعد درجة درجة. فقد انتهوا من إصلاح التجارة ثم التنوير الفكري ثم صياغة الدساتير حتى وصلوا إلى ما هم عليه الآن. وأقول إن هنا تظهر النية السيئة، لأنه ليس مطلوبًا منا فقط القفز لتحقيق جميع المراحل للوصول إلى الديمقراطية، بل مطلوب منا الصعود دون وجود درجات سُلَّم، ومطلوب منا الصعود وفقًا للنمط الذي يحددونه لنا. وعندما جاء الرئيس بوش إلى المنطقة قال إنه يريد أن يصبح شكل هذه المنطقة كذا، لم يحدد درجات الصعود ولا كيفيته، بل طلب الوصول إلى القمة وفقًا لما يراه وما يحدده. المسألة الأخرى كقضية في التغيير هي فكرة الوعي بالمستقبل، فهناك شعوب وطبقات حاكمة لا يوجد لديها أدنى وعي بالمستقبل. وأظن أننا كشعب لا يوجد لدينا وعي كبير بالمستقبل، وأقصى ما يمكن أن تقدمه رؤية مصرية للمستقبل هي الغد فقط أو على أقصى تقدير العام القادم فقط، لكن، لا أحد يجيب على سؤال إلى أين نحن ذاهبون؟ أو هذه الأمة إلى أين؟

توجد مشكلة أساسية في التراث العربي والثقافة العربية والإسلامية والثقافة الشرقية تتعلق بكلمة "الزمن"، التي تبدو دومًا مع كلمات أخرى مثل "دهر" و"قدر" وغيرها وكأنها شيء مخيف ومرعب، ولا أعرف ما سبب هذه النظرة. قرأت عن قبيلة في بوليفيا اسمها "إيمارا" يشير أفرادها إلى الخلف عندما يتحدثون عن المستقبل! وتعريفهم للشيء الجيد هو الشيء الذي يعرفونه، أما ما لا يعرفونه وهو المستقبل فهو شيء غير جيد ولذلك يلقونه خلف ظهورهم في إشارة إلى أنه لا يهمهم، في حين أنهم عندما يتحدثون عن الماضي فإنهم يشيرون إلى الأمام وذلك لأنهم يعرفون ماضيهم، حتى الأفعال التي يستخدمونها في بلادهم يستخدمونها بشكل معكوس، وذلك للتأكيد على أن ما يستطيعون التحكم فيه هو الماضي الذي يعتبرونه أفضل من المستقبل.

يوجد أيضًا خوف من التقدم التكنولوجي، وكانت الرسالة الثانية لفوكوياما عن هذا الموضوع، بعد ما كتب عن نهاية التاريخ فقد كتب عن تقدم التكنولوجيا الحيوية وأن الإنسان لن يستمر كما هو إنسان، كما أن هوية الإنسان ستضيع في ظل التكنولوجيا الحالية. ولن أتحدث طويلاً عن تفاصيل الواقع الدولي الذي يمكن أن يكون عقبة ويمكن أيضًا أن يكون عاملاً مساعدًا، ولا عن دور الصدمات والتحديات كحوافز للتغيير أو معوقات .

سأضرب مثلين قبل أن أنهي حديثي عن التغيير وكيف يمكن أن يتم بقسوة وشدة وكيف يمكن أن يحقق النجاح، التجربة الأولى هي تجربة الصين، وهي تجربة عشتها، فقد وصلت إلى الصين عندما كان ماو تسي تونج يجرب نظام المزارع الجماعية، وكانت ظاهرة فريدة، ولكي نعرف كيف كانت الصين وكيف أصبحت، فإنه يجب أن نقرأ كتابًا قرأته قبل أن أذهب إلى الصين، وهو كتاب لجون جانثر يحمل عنوان "داخل آسيا" Inside Asia صدر خلال عام ١٩٥٠، وكان يصف أحوال الصين، ثم ذهبت إلى الصين بعد أن قرأت هذا الكتاب بحوالي عشر سنوات وأنا أتوقع أن أرى ما قرأت عنه أو بعضًا منه على الأقل. فقد ذكر الكتاب أن عمال جمع القمامة كانوا يعثرون في شنغهاي وحدها على جثث ثمانية آلاف طفل رضيع ملقاة في القمامة، كما كانت النساء معروضات للبيع، وكان الشباب في الشوارع لا يجدون عملاً ومخدرين بالأفيون، ويتحدث الكتاب عن "عطر بكين" سخرية من الرائحة الكريهة التي كان يشمها على بُعد كيلومترات كل من يقترب من بكين بسبب تراكم القمامة والقاذورات والحشرات. كانت الصين في أسوأ حالة يتصورها أي خيال. لذلك، كان أول ما فعله ماو تسي تونج الاهتمام بالنظافة والأخلاق وإعدام تجار الأفيون وتحويل المدمنين إلى مستشفيات ومعسكرات عمل تساعدهم على الشفاء من الإدمان، وقد كان سكان الصين في هذا الوقت حوالي ٦٠٠ مليون نسمة، وكان من قبيل الإعجاز أن ينجح حاكم واحد في تحسين أوضاع

هذا العدد الضخم من البشر، وأن ينجح في إحياء شعب كان نصفه ميتًا ومخدَّرًا وأن يحركه لكي يعمل وينتج، ولكني رأيته وقد بدأ بتكليف الطلبة في المدارس باصطياد الذباب والعصافير لتحقيق النظافة، وتكليف كل حي وكل شارع بالمسئولية الكاملة عن نظافته. ثم وضع فلسفة الثورة الدائمة والتي تقوم على أن أي حكم يستقر ولو لفترة لا تتعدى السنوات العشر سينشئ طبقة حاكمة، والطبقة الحاكمة ستفسد وتتعفن فتنهار الدولة. كان مقتنعًا تمامًا بهذا. كما أنه كان مقتنعًا بضرورة دمج الماركسية بالماوية (نسبة إلى ماو تسي تونج) وبالكونفوشية، وأن التقدم لابد أن يكون حلزونيـــًّا، ووصل إلى أنه لابد أن يتم القضاء على الطبقة الحاكمة بعد مرور ثماني سنوات، وفعلاً، في عام ١٩٤٩، عندما قامت الثورة التي قادها والتي تولى الحكم بعدها، قضى على أمراء الحرب وعلى تجار الأفيون وعلى الطبقة الإدارية الحاكمة، وفي عام ١٩٥٨، شن حملة المزارع الجماعية وقرر القضاء على بيروقراطية الحزب الشيوعي التي استمرت تتحكم في الحزب وفي الصين منذ عام ١٩٣٥، وأحل بيروقراطية الدولة محل بيروقراطية الحزب. وفي عام ١٩٦٤، أطلق الثورة الثقافية التي قضى بها على بيروقراطية الدولة وسلم الإدارة للجيش. وأعتقد أنه لولا هذه الثورات الثلاث المتعاقبة، لم تكن الصين لتتحول منذ عام ١٩٧٠ إلى الثورة التي نراها حتى الآن، وأن تصل إلى موقعها الراهن في العالم، وأن يحدث هذا في أقل من أربعين عامًا من الانهيار التام الذي كانت عليه في الأربعينيات، لقد شمل التغيير في الصين كل شيء بدءًا من أقل سلوك من سلوكيات الفرد إلى أقصى درجات التقدم التي نراها الآن.

المثال الآخر في القسوة قرأت عنه في كتاب صدر أخيرًا يحكي قصة ما فعلته أمريكا بالهنود الحمر. نحن نعرف أن أمريكا قضت على الهنود الحمر بطريقتين، أولاً بالإبادة الجسدية وثانيًا بالإبادة الثقافية، والمثال على الإبادة الثقافية يتجلى في قبيلة تدعى "كراو" ظل زعيمها على قيد الحياة فترة طويلة وهو الذي روى فيما بعد القصة الحقيقية لما حدث لقبيلته، فقد كانت قبيلته تعتمد –مثل الكثير من قبائل الهنود الحمر– على الصيد، لم يمارسوا الزراعة لأنهم كانوا يرونها مهنة متدنية، وعلى الصيد قامت ثقافة هذه القبيلة من زواج وتربية وممارسة الحياة والطعام والشراب والتاريخ والقصص والأساطير، وكان خروج الشباب إلى الصيد هو الذي يحدد دور القبيلة. وكان أحدهم عندما يصطاد جاموسًا مثلاً يضع عودًا من الخشب في المكان الذي اصطاد فيه، وعندما قررت حكومة واشنطن القضاء على هذه القبيلة، أصدرت أمرًا بسيطًا أحدث نتيجة مذهلة. حرمت الصيد فماتت الثقافة. وفي يوم من الأيام، ذهب أحد الأمريكيين البيض إلى زعيم هذه القبيلة يسأله عن سر امتناع ما تبقى من أفرادها عن الخروج وعن الكآبة المخيِّمة عليهم، فقال لهم الزعيم إنهم فقدوا قيمة الشجاعة التي كانت تساعد على إثراء حياتهم، فجاء رد الرجل الأبيض: "ومن قال إن الشجاعة تأتي بالصيد أو

بالانتصار فقط؟ الشجاعة تأتي أيضًا من الاعتراف بالهزيمة". وأعتقد أنه مازالت أمريكا تطبق على كثير من الشعوب أن التغيير يكون بالاعتراف بالهزيمة، وهو المطلوب من العراقيين ومن الفلسطينيين لكنه لا يحدث بالسهولة أو السرعة اللتين حققتا نهاية ثقافة قبيلة الغراب.

جابر عصفور:

أشكر الأستاذ جميل مطر على هذه المحاضرة القيمة والممتعة، فقد أمتعنا بنظرته العميقة وأفكاره الثاقبة، والآن نستمع إلى تعقيب قصير من سعادة السفير عبد الرحمن موسى.

عبد الرحمن موسى:

أمتعنا الأستاذ جميل مطر في هذه المحاضرة بهذا الكم الهائل من التفكير الفلسفي العميق حول مفهوم الثقافة، ومفهوم الإصلاح، والذي أمتعني هو ذلك الدمج بين هذا الفكر وتطبيقه في صورة ما أطلق عليه أدب الرحلات، وهو النابع من كون الأستاذ جميل مطر كان دبلوماسيًّا عاش في وزارة الخارجية لمدة أحد عشر عامًا عمل خلالها في عدد من العواصم الهامة في العالم أثرت في فكره وفي تناوله للأمور؛ وهو ما يوضح هذا التأثير الذي لمسناه اليوم، وأكبر دليل على ذلك هي تلك الأمثلة التي ضربها لتوضيح التغيير الثقافي وحتميته في المجتمع، لكن، هل هناك مجتمعات لديها ثقافة الإصلاح؟ بمعنى أنها ترغب في ثقافة الإصلاح، وأن هناك جماعات أخرى ليست لديها هذه الثقافة، بمعنى أنها لا ترغب في هذا الإصلاح؟ أعتقد أن جزءًا من العالم العربي ينتمي إلى المدرسة الثانية حيث إن هناك معوقات كثيرة تواجه الإصلاح وبالذات في المجال الثقافي، وذلك لأن أفكارنا كلها مرتبطة بعدد من الموروثات القديمة التي قد تعوق أي فكر إصلاحي في مجال الثقافة، والأمثال كثيرة جدًّا منها "اللي نعرفه أحسن من اللي منعرفهوش"، كما يتجلى ذلك في انعدام ثقافة الجرأة والمغامرة لدى الكثير منا والتي تعوق التقدم الاقتصادي في هذا البلد، كل هذا يدفعنا إلى التفكير في كيفية تغيير هذه الثقافة، وهل نحن قادرون على تغيير ثقافة هذا المجتمع؟ أعتقد أن هذا موضوع مهم جدًّا ويجب أن نتكاتف فيه جميعًا، لأن هذا الاتجاه لتغيير هذه الثقافة سيمكِّننا من أن نتواكب مع المفاهيم الحديثة حتى نستطيع أن ننهض بهذا المجتمع، وذلك لأن الثقافة والمفاهيم المتعلقة بها هي التي تحدد اختياراتنا السياسية والاقتصادية.

جابر عصفور:

أحب أن أؤكد إلى ما أشار إليه الأستاذ جميل مطر من أن الثقافة اصطلاح محايد، وذلك لأن الثقافة من الممكن أن تكون تقدمية أو رجعية أو متطلعة للمستقبل أو مشدودة للخلف، أي أنها من

الممكن أن تأخذ عشرات الصفات، ومع ذلك تظل ثقافة، وهذا يعود بنا إلى تعريف الثقافة، ومن الأفكار التي استفدتها من الأستاذ السيد ياسين أن الثقافة هي رؤية عالم، بمعنى مجموعة المفاهيم والتصورات التي يحدد بها الإنسان مثلثًا يكون كل طرف من أطرافه مهمًّا جدًّا، وهذا المثلث عبارة عن: الله، الإنسان، الطبيعة، والسؤال هو ما العلاقة بين زوايا هذا المثلث؟ وما العلاقة بين مكونات كل زاوية تكوِّن في النهاية رؤية عالم. وما يحدث في مصر على سبيل المثال يشير إلى أن مصر بها أكثر من ثقافة لأن بها أكثر من رؤية عالم، وما يحدث أن رؤية تسود على غيرها من الرؤى نتيجة لمجموعة من العوامل الاقتصادية والسياسية الداخلية والخارجية. إن ما يحدث في مصر الآن يميل إلى رؤية العالم السلفية الاتباعية التقليدية، وهي تسود لأسباب متعددة يمكن حصرها ورصدها، وسوف يوضح ذلك حديثي عن مفهوم الزمن، إن مفهوم الزمن يحدد الفرق بين صفات الثقافات، فهناك ثقافة تتميز بأن الزمن فيها دائمًا صاعد وهو زمن التطور، وفي الثقافة العربية يوجد مفهومان للزمن، المفهوم الديني الذي يعطي لنا بعدين للزمن أولهما الزمن الهابط أو المنحدر؛ وهو الذي يبدأ من نقطة جميلة جدًّا من الممكن أن نسميها العصر الذهبي ثم ينحدر الزمن وينحدر بحيث إن ما يأتي يكون أسوأ من الذي مضى، وفي بعض التفسيرات لهذا النوع من الزمن المنحدر الذي يعتمد على تأويلات مغلوطة بالتأكيد للحديث النبوي الذي يقول "خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"، بمعنى أن أفضل قرن هو الذي كان يعيش فيه الرسول عليه الصلاة والسلام، والذي يأتي بعد الرسول أكثر سوءًا إلى أن نصل إلى نهاية العالم. وثانيهما الزمن الدائري بمعنى أن الزمن يبدأ من نقطة ويعود إليها مثل فصول السنة التي تبدأ ثم تعود إلى ما بدأت به، هذا المفهوم الخاص بالزمن عنصر من العناصر التي تميز بين رؤية عالم ورؤية عالم. أما لماذا تسود رؤية عالم بعينها على جميع الرؤى فإن هذه مسألة تستحق النقاش، وأنا شخصيًّا لم أقل هذه الملاحظة إلا لكي أستفز ضيف القاعة الأستاذ السيد ياسين لكي يدلي بدلوه.

السيد ياسين:

إن عنوان المحاضرة الممتعة للصديق العزيز الأستاذ جميل مطر هو "ثقافة الإصلاح وإصلاح الثقافة"، هذا عنوان يحتاج إلى تفكيك إن صح التعبير، إن ثقافة الإصلاح عبارة غامضة ينبغي ترجمتها، وقد ترجمها الأستاذ جميل مطر في عبارة سريعة أوردها في محاضرته حين تحدث عن أنواع الثقافات وأشار إلى أن هناك ثقافة سلطوية وثقافة ديمقراطية، هذا هو مفتاح الموضوع كما أتصوره كباحث في علم الاجتماع السياسي. وهناك إشكاليتان ينبغي أن نميز بينهما مما قاله الأستاذ جميل مطر: إشكالية الوضع الثقافي في الدولة العربية المعاصرة إن صح التعبير، وإشكالية العولمة والثقافة التي هي موضوع آخر.

إن العالم العربي عجز عن إقامة الدولة الحديثة بالمعنى الحقيقي للكلمة، الدولة الحديثة الأوروبية ترجمة لمشروع الحداثة الأوروبي، فما هي عُمُد مشروع الحداثة الأوروبي؟ إن عُمُدَه معروفة ذكرها جيدنـــز في كتابه المعروف "Consequences of the Modernity"، وهي تقوم على الفردية واستخلاص الفرد من شمولية المجتمع بإخضاعه السابق على المجتمع الصناعي. وحتى الآن، نحن لم نكتشف الفرد في العالم العربي، إذ تضغط عليه الشمولية بصورها المختلفة الدينية والسلطوية، ويظل الفرد ضائعًا في جموع مختلفة، وهذا جزء مما يسمى بالجماهير الثورية الجريئة. وجزء أساسي من الحداثة هي العقلانية، وجزء أساسي من الحداثة السياسية تداول السلطة وحرية التفكير وحرية التعبير وحرية التنظيم، وقد فشل العالم العربي في إقامة دولة الحداثة، واستبدلها بما أسميه شرعية التحديث، محاولة عمل ترقيع في المجتمع التقليدي ونقله إلى مجتمع عصري مع درجات متفاوتة من النجاح والإخفاق. والمفروض على العالم العربي الآن من أمريكا والعالم الأوروبي هو نقل الدول العربية من التحديث إلى الحداثة، وهذه مشكلة كبرى، إن الشعار الأساسي للحداثة كان أن العقل وليس النص الديني هو محط الحكم على الأشياء، ومازلنا حتى الآن في عصر التخلف الموجود نعاني من كون النص الديني هو محك الحكم على الأشياء، ونسمع فتاوى في الاقتصاد والسياسة والعلاقات الدولية لا أساس لها، وبالتالي، فإن الإصلاح الثقافي لن يتم في العالم العربي إلا إذا أخذنا المعيار الأساسي للحداثة الأوروبية، وأن يصبح العقل هو محك الحكم على الأشياء. هذا ليس استبعادًا للدين لأن الدين لا يمكن استبعاده من المجتمع، ولكننا نتحدث عن الفصل بين الدين والدولة تحت شعار العلمانية، في الوقت الراهن هناك مشكلة كبرى تقوم على أن النص الديني يريد أن يهيمن في ظل جماعات إسلامية متطرفة، وأود لو يقرأ الجميع كتب فقه المراجعات التي قامت بإصدارها الجماعات الإسلامية، في الواقع لم أقرأ ما هو أشد ركاكة من هذا الفكر ولا أشد ضحالة، وسوف أعطيكم مثالاً، في أحد الكتب المكتوب عليها تحت إشراف الأمير فلان وتحت اسمه ذُكر حوالي سبعة عشر اسمًا، يقول محررو الكتاب إنه فيما يختص بإباحة قتل السياح -التي تراجعوا عنها مؤخرًا- فإن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يقتل أعداءه بالمنجنيق، وقياسًا على ذلك فإنهم كانوا يبيحون قتل السياح، أليست هذه ركاكة وانحرافًا في تأويل النص الديني؟ لقد أصبحت ثقافة التخلف ثقافة سائدة، والدولة مسئولة عن هذا، لأنها حاولت أن ترشو الجماعات الدينية بالبرامج الدينية التافهة التي تحتوي على فكر متخلف من شأنه تنحية الفكر الليبرالي المستنير. لقد فشلنا كمثقفين ليبراليين في إنتاج خطاب ليبرالي يصل إلى الجماهير حقيقة ويحركها، وأؤكد أننا في حاجة إلى الخروج من إطار التحديث بأي معنى من معانيه إلى إطار الحداثة بمعناها الحقيقي حيث يكون العقل هو محل الحكم على الأشياء، ويصبح للفرد حقوقه وعنده حرية تفكير. ومازال بعض الشيوخ حتى الآن يرفعون دعاوى الحسبة لمحاسبة هذا المفكر أو

ذاك، وكأننا عدنا إلى عصر محاكم التفتيش من جديد والدولة تسمح بهذا، أعتقد أن كل هذا في حاجة إلى إعادة نظر.

سعيد حسن زلط:

لقد شعرنا في مصرنا العزيزة بغزو الثقافات الغربية بقوة علينا الآن، في شتى مناحي حياتنا المعيشية والاقتصادية والتعليمية ... إلى آخره. وأسأل الأستاذ جميل مطر: ما هي أسس الإصلاح الثقافي للمواجهة الحقيقية لهذا الغزو الغربي المتزايد والمتنامي ضدنا؟ أم أنه سيتم تركه وإهماله؟ وهل سيتم إهمال كل القوانين النائمة لحماية اللغة العربية ومعتقداتنا وعاداتنا رغم صرخات علماء المجمع اللغوي المصري عما يحدث من أبناء مصر في هجومهم الشديد على اللغة العربية في واجهات المحلات التجارية والمسميات الأجنبية المتزايدة.

جابر عصفور:

توجد مقولة جميلة قالها غاندي حول موضوع الغزو الثقافي، يقول غاندي: "إنني مستعد أن أفتح نوافذ بيتي على كل الرياح الآتية من كل اتجاه، بشرط ألا تزعزع الأساس الذي قام عليه بيتي"، وهذا معناه هو قبوله لكل التيارات الفكرية القادمة من الخارج على ألا يهز أي شيء جذوره.

زكريا إبراهيم:

ما هو التعريف العلمي للعولمة؟ وماذا عن أنها تُعرَّف على أن لا يكون لأحد هوية؟ وماذا عن اختلاف اللغات؟

جميل مطر:

توجد عدة تعريفات للعولمـــة وليس تعريفًا واحدًا، والتعريف الخاص بالهوية هو أحد تعريفاتها.

حسن (لم يذكر المتحدث باقي الاسم):

أريد أن أؤكد على ضرورة الحفاظ على اللغة القومية في ظل العولمة.

جميل مطر:

لا شك أيضًا في هذا، إن الحفاظ على اللغة هو حفاظ على الثقافة، والقضاء عليها يعني أيضًا القضاء على الثقافة، وأظن أنه لابد من الاهتمام باللغة، وأنا لا أخص هنا بالذكر اللغة العربية وحدها على الرغم من أهميتها القومية القصوى بالنسبة لنا جميعًا، لكنني أتحدث هنا عن جميع لغات العالم، لأن من حظنا العيش في عالم تحكمه ثقافات ولغات متعددة، وإذا قضينا على هذه اللغات، فإنه ستنتهي ثقافات العالم وتُختزَل إلى ثلاث أو أربع ثقافات سوف تسود في العالم كله، وأعتقد أن من بين هذه اللغات التي ستعيش طويلاً اللغة الصينية إذا استمرت الصين على نفس النهج التي تسير فيه الآن، أما الهند، فمن الممكن أن ينتهي بها الحال إلى التحدث بالإنجليزية مثلها في ذلك مثل الكثير من الشعوب التي تتحدث الإنجليزية. وأؤكد أن اللغة العربية لا يمكن أن تُنسى، فهي لغة القرآن الكريم، لكن ضعفها يُعد ضعفًا ثقافيًّا، ومن هنا فإنه لابد من الاهتمام بها.

متحدث لم يذكر اسمه:

ما رأي الأستاذ جميل مطر في استخدام اللهجة المحلية في جميع البلاد العربية وطغيانها على اللغة العربية الفصحى؟ حيث إنه في معظم الأحوال تختلط باللغة الأصلية إضافة إلى تشويه الكثير من الكلمات العربية.

جميل مطر:

إنني من أنصار الحفاظ على اللغة بوجهيها العامي والفصيح، وقد عاصرت هذه المشكلة في لبنان منذ فترة طويلة عندما كانت هناك دعوة لأن تكون اللغة أو اللهجة المحلية هي الأساس، واليوم توجد محطات فضائية لا تتحدث سوى اللغة المحلية. وأنا أقول لا مانع، بشرط الحفاظ على اللغة الأصلية، بشرط أن تتحدث معظم المحطات باللغة الفصحى وأن تُذاع كذلك نشرة الأخبار بالفصحى، ولا مانع أن تكون هناك محطات فرعية لفئات من المجتمع مثل الفلاحين والبدو مثلاً في مصر، ولكن المهم هو الحفاظ على اللغة العربية الأصلية.

ورد إليّ تعليق عن ربط ما يسمى بثقافة العنف بالدين الإسلامي اعتمادًا على آيات عديدة من القرآن الكريم، إن إلصاق تهمة العنف بالإسلام متعمدة وتنطوي على سوء نية. والثقافة الغربية عمومًا ثقافة عنف بتاريخها أكثر بكثير من الثقافة الإسلامية، فقد اتسمت الفتوحات الغربية في العالم الثالث وفي أمريكا الشمالية والجنوبية بقدر عالٍ من العنف لم يعرفه التاريخ العالمي من قبل، ويكفي أن نعرف الحجم الحقيقي لعمليات إبادة السكان الأصليين في أمريكا الشمالية. وقضية اتهام الثقافة

الإسلامية بالعنف قضية قديمة ومتعددة وسنظل نسمع عنها. ونحن نرى الآن ما الذي يدفع العراقيين على سبيل المثال إلى استخدام العنف ردًّا على ما يفعله الأمريكيون. يجب في الأساس بحث ثقافة العنف في كل الثقافات وعبر كل مراحل التاريخ، وأن نعيد طرح مسئولية الاستعمار الغربي عما حدث في كثير من بلدان العالم، وأدى إلى تخلفنا. وغير صحيح أننا استفدنا من الاستعمار، أو أن الاستعمار كان يجب أن يمكث أكثر حتى نستفيد منه أكثر، إن كل هذه نظريات خائبة. على العكس، لقد كسر الاستعمار ثقافات الكثير من الشعوب التي استعمرها، ولم يقتصر الأمر على اللغات القومية، ولكن أيضًا كسر الكثير من القيم، إن الغرب مستمر في العنف بأشكال مختلفة ولن يعفيه أحد من هذه المسئولية.

جابر عصفور:

نشكر المتحدث الأستاذ جميل مطر على محاضرته الشيقة، وإلى اللقاء القادم في منتدى الحوار.